

من أخبار المسافرين (٩) عروة والمصائب العظيمة

إليك هذه القصة الرائعة العجيبة، والحادثة الماتعة الغريبة، قصة لأحد المسافرين العظماء، والصابرين النجباء، أحد المسافرين الذين ضربوا للصبر أروع مثال، ورضوا بما كتبه ذو الجلال، وقالوا الحمد لله على كل حال.

الحادث أليم، والمصاب جسيم، ولكن هذا المسافر ذو صبر عظيم. أما المسافر فهو: عروة بن الزبير بن العوام رحمه الله ورضي عنه وعن والده وعن أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق.

وقد كان عروة من كبار علماء التابعين وقد لازم خالته أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما وتفقه على يديها. قال عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله -: «ما أجد أعلم من عروة بن الزبير».

وروى ابن المديني عن سفيان عن الزهري قال: «رأيت عروة بحراً لا تكذّره الدلاء».

وقد كان عروة بن الزبير مع جلاله علمه من كبار رواة الشعر وحفظه وكان عابداً زاهداً كريماً محسناً. كان له بستان عظيم فإذا حان وقت الرطب هدم جزءاً من حائط البستان ثم أذن للناس فيه فيدخلون ويأكلون ويحملون منه ما يريدون.

هذه عجالة مبتسرة من حياة هذا المسافر العظيم وسوف نتعرف

على جانب من جوانب حياته المضيئة من خلال روايتنا لقصته الآتية:

سافر عروة بن الزبير إلى الوليد بن عبد الملك، فلما وصل إلى وادي القرى، وجد في رجله شيئاً، وأحس فيها ألماً فظهرت به قرحة، ثم ازداد الألم، واشتد الوجع. فلما وصل إلى الوليد، وهو على تلك الحالة من الألم الشديد الذي لم يستطع معه المشي، دعا له الوليد الأطباء فقالوا له: لا بد من قطعها، فوافق على ذلك. فقالوا له: نسقيك شراباً يزول فيه عقلك حتى لا تشعر بالألم، فأبى وقال: ما كنت أظن أن إنساناً يشرب ما يزيل عقله، ولكن إذا قمت إلى الصلاة فاقطعوها، فلما قام إلى الصلاة قُطعت فلم يُسمع له حسٌّ ولا صوت. فقال الوليد: ما رأيت شيخاً قط أصبر من هذا.

ولم تكن هذه هي المصيبة الوحيدة التي نزلت بعروة في سفره هذا، بل أصيب أيضاً في ابنه محمد فقد ركضته بغلة في اصطبل فمات، فلم يتسخط عروة من ذلك ولم يُسمع منه كلمة ولم يزد على أن قال: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾.

وبعد أن مات ابن عروة وقطعت رجله اتجه إلى السماء في خشوع وخضوع قائلاً: اللهم كان لي بنون سبعة، فأخذت واحداً وأبقيت لي ستة، وكان لي أطراف أربعة فأخذت طرفاً، وأبقيت ثلاثة، ولئن ابْتَلَيْتَ، لقد عَافَيْتَ، ولئن أَخَذْتَ لقد أَبْقَيْتَ!!!

فانظر أخي المسافر إلى هذا اليقين الجازم، والقلب الحازم،

والإيمان الأكيد، والموقف الفريد، انظر إلى روعة الصبر، واحتساب الأجر.

يقول عبدالله بن عروة: نظر أبي إلى رجله بعد قطعها وهي في الطَّسْتِ فقال: إن الله يعلم أني ما مشيت بك إلى معصية قط وأنا أعلم. رحم الله عروة بن الزبير ورضي عنه وغفر له وجمعنا به في جنات النعيم.

آيات للتدبر والتفكر

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ ﴿٢٤﴾

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾
 وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرَةٌ
 وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ
 وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ
 بَلَدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾

[سورة ق]

المسافر والشمس والقمر

المسلم إنسانٌ يتميز بأنه يمتلك النظرة الصحيحة والموقف السليم من كل مخلوقات الله تعالى من شمس وقمر ونجوم وأفلاك، وسماء وأرض، وليل ونهار. . الخ.

فهو ينظر إليها على أنها مخلوقات من مخلوقات الله تعالى، تعمل بأمره، وتسبح بحمده، وتدل على عظمته ووحدانيته وقدرته، فكلما تأملها زاد إيماناً بخالقها، وكلما نظر إليها امتلأت نفسه إجلالاً لمنشئها.

ومن آيات الله الباهرة ودلائل عظمته الساطعة الشمس والقمر.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [٣٧]

[فصلت: ٣٧]

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [٣٣]

[الأنبياء: ٣٣]

والشمس والقمر سخرهما الله تعالى لحكم عظيمة وهي من نعمه على عباده. ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِئَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [٥]

[يونس: ٥]

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [٢٩]

[لقمان: ٢٩]

وبجريان الشمس والقمر تُعرف الأيام والشهور والأعوام.

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ [الأنعام: ٩٦]
 وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ
 لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
 يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥]

ومن شدة إعجاب الناس بالشمس والقمر وإكبارهما ومعرفة أهميتهما
 وصل الأمر بكثير منهم إلى عبادتها والسجود لهما ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ
 وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي
 خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧]

انظر إلى الشمس وهي في حركتها المنتظمة كل يوم فهي تطلُّ علينا من
 المشرق، ثم تُودِّعنا وتختفي عن أعيننا من المغرب، فإذا ما أقبل الصباح
 ولاح ضوء الفجر إذا بها تطلُّ علينا ثانية من المشرق فسبحان الخلاق
 العظيم، وهذا القمر يشبه في حركته وأطواره أطوار حياة الإنسان فأول ما
 يبدأ صغيراً ثم يتزايد نوره وجرُّمه حتى يكمل، ثم يشرع بعد ذلك في
 النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى.

أخي المسافر، تأمل هذه الحركة الدائبة المنتظمة للشمس والقمر فلا
 اختلاف ولا اضطراب ولا خلل ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ
 الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [القمر: ٣٨] وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ
 يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

[يس: ٣٨-٤٠]

هذه الشمس لو اقتربت إلى الأرض درجة واحدة لأحرقت كل ما في

الأرض ولو ارتفعت درجة واحدة لتجمد كل ما في الأرض .
ثم إن المسلم لتأخذه الدهشة والعجب حينما يعرف شيئاً من أسرار
الشمس والقمر والنجوم وذلك ما أثبتته العلم الحديث .
فمثلاً: بُعد الأرض عن الشمس يساوي ٦, ١٤٩ مليون كيلومتر تقريباً .
والشمس والقمر ما هما إلا جزء من المجموعة الشمسية والتي تتألف
من الشمس وتسعة كواكب أخرى هي عطارد، الأرض، المريخ، الزهرة،
المشتري، زحل، أورانوس، بلوتو، نبتون . وكل هذه المجموعة وما
تضمه من نجوم وكواكب وأقمار ما هي إلا جزء صغير من المجرة
(المسماة: درب التبانة) وهناك أكثر من عشرة آلاف مجرة في هذا الكون
العظيم .

هذه الشمس التي نراها ضئيلة وصغيرة إنها تكبر الأرض بمئات
المرات، إذ يمكنك أن تحشو الشمس بمليون وثلثمائة ألف كرة أرضية!!
والشمس هي أهم شيء بالنسبة لحياتنا من الناحية الفلكية فهي التي
تمدنا بالضوء والحرارة، وهي التي بتبخيرها لمياه الأرض تسبب سقوط
الأمطار وهي التي بتسخينها لليابسة والبحار بدرجات مختلفة تسبب
هبوب الرياح، وهي التي تمد النبات بالغذاء، وهي التي تمدنا بمصادر
القوة، لأن الخشب والفحم والبتروول ومساقط المياه كلها تعتمد على
الشمس بقدرة الله تعالى .

أما القمر فهو أقرب إلينا من الشمس ومن النجوم وبعده عنا يقل عن
ربع مليون ميل، والقمر إذا قورن بالأرض يعتبر صغيراً فهي أكبر منه
خمسين مرة .

والنجوم كذلك غاية في العجب والغرابة وعالم عظيم مهيب غريب . وهي وإن ظننا أنها قريبة منّا إلا أنها أبعد من الشمس بما لا يقارن . وقد واصل الفلكيون دراسة النجوم وعرفوا ألوان لمعان عدد كبير منها والتي تصل أبعادها إلى ١٠٠ سنة ضوئية بل وأبعد من ذلك . وبعض النجوم الزرقاء يزيد ضوءها على ضوء الشمس ١٠,٠٠٠ ضعفاً، ومقابل كل نجم من هذه النجوم يوجد ١٠٠,٠٠٠ نجم مماثل للشمس في لمعانها . وبعض النجوم يزيد في ضخامته عن الشمس بمائة ضعف . والنجوم ملايين مملينة بحيث لا يستطيع أحدٌ مهما استخدم من المناظير أن يحيط بها كلها .

يقول أحد الفلكيين : إن عدد النجوم يزيد على عدد حبات الرمال التي على شواطئ جميع بحار الدنيا .

﴿ فَسَبِّحْنَا الَّذِي يَبْدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٨٧)

وقد كانت النجوم من العلامات التي يهتدي بها الناس في أسفارهم واتجاهاتهم وأوقاتهم ﴿ وَعَلَّمَتْنَا بِالنُّجُومِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (١٦) [النحل: ١٦] وخلاصة الأمر، أخي المسافر، أن الشمس والقمر والنجوم آيات من آيات الله تعالى العظيمة، وقد رصد العلم الحديث من أخبارها ما يدهش العقول ويذهل النفوس، فسبحان الخلاق العظيم!! سبحانه!! سبحانه!!

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُعْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٥٤)

﴿ نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ ﴿١١﴾

[الفرقان: ٦١]

يقال إن الإسكندر استلقى ليلة على سريره، فتأمل مطالع البروج وأوافلها، وانتظام الكواكب في أقطارها، وتبين كيف تجري في مسيرها، وتنعكس في مغاربها، بتدوير الفلك إياها، لا يردعه عارض عن مدى غايته، ولا يحجزه حاجز دون المضي لطلبته، لما رُتّب له بطبيعته، فقال: أيها الفلك الدوّار، المبني على الحكمة، المزيّن بالأنوار المتلاثلة، إنّ فضاء تظله لرحيب، وإن ركناً أنت ذروته لوثيق، وإن قراراً أنت سمكه لمكين، وإن سكناً تحصّنوا فيك لفي معقل منيع، وإن أمراً أنت أوّله لجليل، وإن بصر اللامح وراءك لكليل، وإن حادثاً يقتلع أركانك ويهدم سقوفك ويميل ذرا بنيانك ويخسف ما تكتنف محارّك لفادح فظيع؛ وإنّ قياماً مبتدؤها ذلك لعنيفة، فسبحان الذي أدّى حواشيك إلى غير علاقة، وركد عليك بلا متسّم، وأقلّ أسفلك بلا عمد، ما أدلّ كرور ليلك على نهارك، ورجوع نهارك بعد انقضاء ليلك، على كرور أبداننا بعد انقراضها، وأدلّ ارتداد النضارة في بالي الشجر بعد قحوله، على ارتداد الأرواح المقبوضة في أجسامها، وأدلّ تقسيط الحساب بين فصول الأيام، على عدالة الرجعة وعدل حساب الكرّة، فليت شعري إلام يتناهى الأمر وإلى آية الحاليتين يؤول بنا الخطب، وعلى أيّنا يجب القود بما أريق بيننا وبين أملاك العالم من الدماء.

أنشد للمأمون:

أما ترى ذا الفلك الدائرا أبيت من همّ به ساهرا

مُفَكِّرًا فِيهِ وَفِي أَمْرِهِ
يُخْبِرُ عَنْ لُطْفِ تَدَابِيرِهِ
قَدْ ضَلَّ عَقْلِي فِي تَرَائِكِيهِ
يَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَرَى مَرَّةً
أَكُونُ مَعَ طَالِعِهَا طَالِعًا
حَتَّى أَرَى جُمْلَةَ تَدْبِيرِهِ

يقول الرصافي:

أُبْعَدَ الدَّهْرَ فِي الْفِضَاءِ مَكْرَهُ
إِنَّ أُمَّ النُّجُومِ بِنْتَ زَمَانِ
فِي فِضَاءٍ لَوْ سَافَرَ الْبَرْقُ فِيهِ
وَلَوْ الشَّمْسُ ضَوَعَتْ أَلْفَ ضِعْفِ
سَعَةِ تَحْسَبُ الْمَجْرَةَ فِيهَا
يَقِفُ الْفِكْرُ دُونَهَا مُكُونَدًا
إِنَّ تَكُنْ هَذِهِ الْمَجْرَةَ نَهْرًا
عَالِقًا فِي مَكْرِهِ بِالْمَجْرَةِ
لَمْ تَزَلْ حَادِثَاتِهِ مُسْتَمِرَّةً
أَلْفَ قَرْنٍ لَمَّا أَتَى مُسْتَقْرَّةً
لَمْ تَكُنْ فِي أَثِيرِهِ غَيْرَ ذَرَّةً
حَلَقَةً أَلْقَيْتَ بِصَحْرَاءِ قَفْرَةٍ
مُقَشَعِرًا وَتَأْخُذُ الْعَقْلَ حَيْرَةً
مُسْتَفِيضًا فَشَمْسُنَا مِنْهُ قَطْرَةٌ

وابتدعهما على غير مثال سابق ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن الشرك إلى التوحيد ولهذا قال: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ .

وقد اختلف المفسرون في هذا المقام: هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ والحق أن إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيّناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبيّن في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم، الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة الملائكة ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه. وبيّن في هذا المقام، خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة، وهي: القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل، وأشدّهن إضاءةً وأشرفهن عندهم الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة، فبين أولاً، صلوات الله وسلامه عليه، أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية، فإنها مسخرة مقدره بسير معين، لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هي جرم من الأجرام خلقها منيرة، لما له في ذلك من الحكم العظيمة، القمر والشمس كذلك، وهكذا انتقل من جرم إلى جرم، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة، التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قَالَ يَنْقُورِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ أي أنا بريء من عبادتهن ومولاتهن فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً، ثم لا تنظرون ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ أي إنما أعبد خالق هذه

الأشياء ومخترعها، ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء وخالقه وربُّه ومليكه وإلهه. كما قال تعالى ﴿إِن رَّبَّكُمْ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حِينًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥١﴾ .

وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظراً في هذا المقام وهو الذي قال الله في حقه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ إِنَّمَا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَهُنَّ سُلْطَانٌ لَّيْلًا نَّهَارًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالشَّجَرُ الْمُسْتَقِيمُ ﴿٥٣﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٤﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٥٥﴾ .

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة». وفي صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: إني خلقت عبادي حنفاء»، فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة فكيف يكون إبراهيم الخليل، الذي جعله الله أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين، ناظراً في هذا المقام؟ بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة والسجدة المستقيمة، بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب، ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظراً لقومه، فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظراً، قوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَدِّثُونِي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَّنِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨١﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ

سُلْطَنًا قَائِي الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا
إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ
عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ .

من عجائب الكون

- ١- عمر الأرض: ٤٦٠٠ مليون سنة تقريباً.
- ٢- مساحة الأرض: ١٠٠, ١٠٠, ٥١٠ كلم^٢ منها ٢٩٪ يابسة و٧١٪ ماء.
- ٣- وزن الأرض: ٦, ٠٠٠, ٠٠٠, ٠٠٠, ٠٠٠, ٠٠٠, ٠٠٠, ٠٠٠ طن (سته آلاف مليون ترليون طن).
- ٤- بعد الأرض عن الشمس: ٦, ١٤٩ مليون كيلومتر تقريباً.
- ٥- نظامنا الشمسي: هو ما تضمه المجموعة الشمسية من كواكب ونجوم وأقمار، وتتألف مجموعتنا الشمسية من الشمس وتسعة كواكب أخرى هي عطارد، الأرض، المريخ، الزهرة، المشتري، زحل، أورانوس، بلوتو، نبتون. وكل هذه المجموعة وما تضمه من نجوم وكواكب وأقمار ما هي إلا جزء صغير من المجرة (مجرتنا درب التبانة) وهناك أكثر من عشرة آلاف مجرة في هذا الكون العظيم فسبحان الخلاق العظيم.
- ٦- حرارة سطح الشمس: ٦٠٠٠ درجة مئوية.
- ٧- حرارة باطن الشمس: ١٦ مليون درجة مئوية.
- ٨- بعد القمر عن الأرض: ٣٤٧٥ كم.
- ٩- سرعة دورانه: ٣٦٨٠ كم/ساعة.

سفر الهجرة

﴿ إِلَّا نَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيْدِيَهُمْ يَجُودُونَ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

الهجرة: فراق المعصوم لملاعب الصبا، ومراتع الشباب، ومسارح الطفولة.

الهجرة: انفصال عن الأهل والجيران، والدار والسكان، والربع والأوطان.

الهجرة: الفرار بالمبدأ قبل أن يُشتمق وبالعقيدة قبل أن تهدم وبالمصحف قبل أن يُصادر.

الهجرة: إنقاذ الدعوة من كتائب الزيغ، وحماية الملة من فلول الإرهاب، وتحصين الرسالة من شرذمة البغي.

الهجرة: استراحة مقاتل، وتجهيز مجاهد، وإعداد مناضل.

الهجرة: مقدمة لبناء دولة، وديباجة لصنع كيان، وثكنة لهيئة عالمية.

عذ بذكراك على قلب كسير	ملّ في السير وأضناه المسير
أيها المعصوم يا بدر الدجى	أنت للعالم كالبدر المنير
الفيافي حالماً بالمنى	تتلقّاك بترحيب مثير
الروابي مشرببات إلى	نورك المشرق والوجه النضير

الهجرة

في يوم من أيام مكة القائظة، في وقت الظهر، وشدة الحرارة، والنَّاس يقبعون في بيوتهم لا يستطيع أحد أن يضع قدمه أو يطل برأسه إلى الخارج نظرًا لسياط الميزان الحامية التي كانت الشمس تجلد بها الأرض، في هذه اللحظات يخرج رجل واحد في حذر شديد، وترقب دائم، يمضي تكاد فروة وجهه أن تحترق من فوح الأرض، وحرارة الجو، عجب أمر هذا المتحدي لسلطان الطقس وقبضة الحر، من هو يا ترى؟ إنه محمَّد بن عبد الله ﷺ إلى أين يذهب؟ إلى صديق العمر، ورفيق الدرب، وأنيس الطريق، إلى أبي بكر الصديق.

تقول عائشة رضي الله عنها: كان لا يخطيء رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النَّهار، إما بكرة وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه لرسوله ﷺ في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه، أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها، قالت: فلما رآه أبوبكر قال: ما جاء رسول الله ﷺ في هذه الساعة إلا لأمرٍ حدث، فلما دخل تأخَّر له أبوبكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ وليس عند رسول الله أحد إلا أنا وأختي أسماء، فقال رسول الله ﷺ: أخرج عني من عندك، قال: يا رسول الله، إنما هما ابتائي، وما ذاك فذاك أبي وأمي؟ قال: إنَّ الله أذن لي بالخروج والهجرة، فقال أبوبكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: الصحبة.

قالت عائشة: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من

الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي!!

خرج الصحابان، ومضى الصديقان، وانطلق المهاجران، فإذا بالدهر يسجل، والزمان يكتب، والأرض تسطر، والسماء تحتفي، إنها انطلاقة الإيمان، وانبعثة الإسلام، إنها رحلة الحق، تحركت عجلتها من مكة بعد أن كانت مجبلة موثقة، فانطلقت في طريقها الوضاء لتجوب الدنيا، وتطوف الأرض، وتطوي الفيافي، وتجتاز الوديان، وهي مع ذلك تنثر عطرها، وتبث عبيرها، وتفوح بشذاها، فإذا بغيثها الهنيء يروي العطش، ويسقي الظمأ، وإذا بوابلها الصيب وودقها الطيب يحيي الأرض، وينبت الزرع، وينعش الأرواح.

إن هذه الهجرة هي بداية هجرة الأجساد، أما الأرواح فقد هاجرت من قبل، والقلوب سافرت منذ زمن، انطلق المهاجران لبدأ التاريخ يروي أجمل قصة تزينت بها هامته، ويحكي أعظم قصة تضوعت بها ذاكرته.

يا لله ما كان أصعبه من فراق علي قلب محمد ﷺ، يخرج من مكة، يهاجر من البيت الحرام، يغيب عن زمزم، يتولى عن مراتع الصبا، وملاعب الطفولة، وذكريات الماضي، يذهب عن الأهل والأبناء والأحبة، يسافر بعيداً عن غار حراء الذي كانت فيه إشراقة حياته، يودع الهضاب التي زاره فيها جبريل، وصافحه فيه الوحي، وضمته إليه السماء، يرحل عن منزل خديجة حبيبة القلب، ونصيرة الدرب، ورفيقة العمر؟! لا شك أن ذلك أمر مرهق، وحدث موجه، لم تطق الروح النبوية أن تخفي أثره، وتتنكر لوقعه، فيلتفت ﷺ إلى مكة التفاتة حزن وأسى وحسرة ووداع، فيهتف في سمعها قائلاً: «ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما خرجت».

ومضى الصاحبان متجهين إلى غار ثور ليخيبا ظنَّ المشركين، ويموها عليهم بانطلاقهما جنوباً، ثم يعودان بعد ذلك شمالاً انطلاقاً إلى المدينة.

ونحن في هذه العجالة لا نريد أن نسرد أحداث الهجرة، ولا نلم بوقائعها، ولا نعدد الدروس والعبر المستفادة منها، فذلك ميدان واسع، ومشوار طويل لا تكفي فيه ورقات، ولا تأتي عليه في ساعات، ولكننا سنقف وقوفاً عابراً مع بعض روائع الحب والوفاء، والتضحية والفداء في هذه المسيرة المباركة، والهجرة الموفقة.

مضى الصديقان، فإذا بأبي بكر رضي الله عنه وأرضاه يتدفق حيوية يمتلئ حماساً، ويتوقد فطنة ولهفاً وحرصاً وعناية وترقباً، يمضي والقلق مهيمن عليه، فتارةً يمشي أمام النبي ﷺ وكأنما يتمنى لو فرش راحته ليمشي عليهما محمد ﷺ، ولسان حاله يقول صدري ونحري دون صدرك ونحرك يانبي الله، وتارة يلتفت ثم يعود ليمشي خلفه ورقبته تكاد تنكسر من كثرة تلفته، فيمضي ولسان حاله يقول ظهري وعمري فداء لك يا رسول الله، ويعجب النبي ﷺ من حال أبي بكر ومشيئه تارة أمامه وتارة خلفه، فيسأله عن ذلك: «يا أبا بكر مالك تمشي ساعة خلفي وساعة بين يدي؟» فيقول: يا رسول الله «أذكر الطلب والعدو من ورائنا فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد والخطر أمامنا فأمشي بين يديك».

فلما وصلا إلى الغار قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ لك الغار، فدخل أبو بكر فاستبرأ الغار، وأخذ يسد كل جحر أو فوهة فيه خوفاً من حية أو عقرب أو شيء يؤذي النبي ﷺ، ثم قال: انزل يا رسول الله، فرأى أبو بكر جحراً صغيراً خاف منه، فوضع رجله على فوهته ثم

جلسا فاضطجع النبي ﷺ من كثرة التعب والإرهاق، ونام متوسداً رجل أبي بكر رضي الله عنه، فإذا بعقرب تلسع أبا بكر في رجله فلا يهتز حتى لا يوقظ رسول الله ﷺ، ثم يشتد الألم وهو صابر حتى سرى السم في جسده، فعظم الكرب، واشتد الوجع، وبلغ من شدة الألم أن انتزع من عينيه دموعاً غزيرة حارة وقع بعضها على خد محمد ﷺ، فانتشلته من نومه انتشالاً، وجعل يسأل حائراً: «ما ذا بك يا أبا بكر؟» قال: «لدغتنى حية» وكانت فرحة التضحية قد ملأت قلب أبي بكر حرارة وحماسةً، فتغلب على شر السم الفتاك الذي كان قد بدأ يسري في دمايته، وتفل الرسول ﷺ على الجرح المسموم ومسحه قليلاً، فزال الألم والتورم في الحال.

ثم يأتي المشركون في بحثهم المستميت عن النبي ﷺ فيصلون إلى فم الغار، فيبكي أبو بكر رضي الله عنه خوفاً على صاحبه، ويقول: يا رسول الله؛ والله لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لرآنا!! فيقول له النبي ﷺ: «يا أبا بكر؛ ما ظنك باثنين الله ثالثهما، يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا: ﴿إِلَّا نَضْرِبُ فَعْدُ نَصْرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا أَتَيْنِي إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾».

وبعد ثلاث ليال في غار ثور يمضي الصحابان ليواصلا مسيرة الخير المليئة بالعبر، المكتظة بالدروس، المعجولة بالمشاهد الرائعة، والمواقف الماتعة، يمضيان يطويان الفيافي المرهقة، والصحاري الموهنة، وهما مهددان بالقتل، مهدرا الدم، مستباحا الحق، وكان هنالك في الجانب الآخر، في المدينة المنورة أناس عظم شوقهم، وطال حنينهم، وكثر

ترقبهم، وأضناهم الانتظار، وأتعبهم الترقب، أفئدة بالحب مترعة، وأرواح بالشوق مفعمة، أولئك الأنصار، رضي الله عنهم وأرضاهم، كانوا على أمل في مقدم النبي المرتجى، والحبيب المقتدى، وكانوا يتوقعون مسيره إليهم فمكثوا زمناً طويلاً يخرجون كل يوم إلى خارج المدينة فتسمر أنظارهم إلى الأفق البعيد عليها تظفر برؤية الحبيب القادم، فيظنون كذلك يتلذذون بالتعب، ويستمتعون بالنصب، فإنَّ الحب يجعل الصعب سهلاً، والمر حلواً، والحر برداً وسلاماً، والبرد دفئاً وهناءً، وهكذا ديدنهم، ينتظرون حتى تكويهم الشمس بلظاها الحارق، وتلهب الحرة من تحت أرجلهم فيعودون بأعين واكفة، وخواطر كاسفة.

وفي يوم من الأيام بعد أن يسوا من قدوم حبيبهم وقفلوا راجعين، وإذا بالصاحبان يقبلان من بعيد لا تكاد تراهم الأعين، يتقاذفهم السراب، وتدنو بهم الرواحل، إلى أن وصلا إلى المدينة، وإذا بالبشير يصيح بهم، جاء محمّد! جاء محمّد!!، فكادت القلوب أن تسقط من شدة الفرح، واهتزت المدينة، وضجّت بالتكبير، وتسابق النَّاس، وخلت المنازل، وإذا بوفد لا يقل عن خمسمائة رجل قد وصلوا خارج المدينة مستقبليين الحبيب القادم، وكان أكثر النَّاس لم ير النَّبي ﷺ من قبل، وأبوبكر في مثل سنه، فكان بعضهم لا يدري أيهما محمّد، فعرف أبوبكر ذلك، فخلع رداءه وأخذ يظلل به رسول الله ﷺ، فعرف النَّاس وانكبوا عليه يقبلونه ويفدونهم ويحيونهم والقلوب جذلة، والأرواح فرحة، والوجوه متهللة، والأعين من الفرح دامعة.

يوم أغر، ومحفل أجل، وفرح أتم، كانت المدينة تكاد حتى أشجارها وأحجارها وأطيّارها تكاد أن تنطق: ما هذا الضياء؟ ما هذا

الهناء؟ ما هذا الإشراق؟ ما هذه الأنوار؟ إنه منظر كما يقول أنس: ما رأينا منظرًا شبيهاً به.

خرج النَّاسُ على الطرقات، وصعدوا على البيوت، وتسلقوا الأشجار، وكل منهم يمد عنقه ويتطلع ببصره عليه يظفر بنظرة في وجه أغلى ضيف وطئت قدمه المدينة، والغلمان والخدم والناس جميعاً يهتفون: الله أكبر، الله أكبر، جاء رسول الله، جاء محمّد، الله أكبر، جاء محمّد، الله أكبر، جاء رسول الله، جاء نبي الله، وصعد النساء فوق البيوت ينظرن إلى رسول الله ﷺ، وإذا بالمدينة باسمه الثغر، ناصعة المحيا، مشرقة الوجه، لم يمر بها أعظم ولا أجمل ولا أفضل من ذلك اليوم، وإذا بالجميع يهتفون وينشدون:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ماعداً الله وادع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

يقول أنس بن مالك رضي الله: شهدت رسول الله ﷺ يوم دخل المدينة، فمارأيتُ يوماً قط كان أحسن ولا أضواً من يوم دخل المدينة علينا.

ويقول البراء بن عازب رضي الله عنه، ما رأيتُ أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ، كان النَّاسُ يفتحون بيوتهم، وتتسابق ورودهم إلى النَّبي ﷺ كل يدعو لأن ينزل عنده، فمضى النَّبي ﷺ حتى إذا أتى دار بني النجار بركت ناقته هنالك، وهو مكان المسجد النبوي، فقال النَّبي ﷺ: أي بيوت أهلنا أقرب، فقال أبوأيوب: أنا يانبي الله، وهذه داري، وهذا بابي فنزل عنده، وكانت داره طابقين، يقول أبوأيوب: «لما

نزل عليّ رسول الله في بيتي نزل في السفلى وأنا وأم أيوب في العلو، فقلت له، يا نبي الله بأبي أنت وأمي، إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فإظهر أنت فكن في العلو ونزل نحن فنكون في السفلى، فقال ﷺ: «يا أبا أيوب إنه أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفلى البيت» يقول أبو أيوب، وكنا نصنع لرسول الله العشاء، ثم نبعث به إليه، فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة .
ولقد انكسر إناء لنا فيه ماء فقمتم أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء يؤذيه» .

يا الله . . يا الله . . يسهر الليل في خوف وقلق ينشف الماء بقطيفته خوفاً أن يؤذي النبي ﷺ وهو ماء طاهر، فكيف لو رأى أبو أيوب من يؤذي النبي ﷺ بكرة وعشياً بالنيل من شريعته، والتنكب لسنته، والمخالفة لأوامره!!

ما أسعدك يا أبا أيوب، وما أسعدكم أيها الأنصار، وما أسعدك أيتها المدينة التي شرفك الله بهذا الشرف الأعظم، وقلدك ذاك الوسام الأكرم، فخطفت إليك قلوب المسلمين وأبصارهم وأرواحهم؛ لأنَّ أعظم حبيب من البشر سكن وجدانك، ونام في أحضانك .

الرفيق قبل الطريق

إذا المرء لم يرضَ ما أمكنه ولم يأت من أمره أحسنه
 فدعه فقد ساء تدبيره سيضحك يوماً ويبكي سنه
 من أعظم نعم الله على العبد أن يرزقه رفقة صالحة، وصحبة ناصحة.
 سعادة بالغة لمن وجد إخوةً يأنس بهم، وأحبةً يرتاح لهم، إذا كثرت عليه
 الهموم وجد عندهم ما يطرد همّه ويذهب غمه، إذا ضاقت به الأمور لقي
 منهم ما يفرّج كربه ويدفع ضائقته، إذا قسا عليه الزمان وجارت عليه الأيام
 وجد من عطفهم ما ينسيه القسوة، ومن برّهم ما يبرد قلبه.
 إذا أراد سفرًا كانوا له في سفره مؤنسين، وعلى طريقه الشاق معينين
 المسافر إذا رُزق الصحبة الطيبة الوفية المخلصة التقية الناصحة الصالحة،
 فإن مشقة السفر لا تجد إلى نفسه طريقاً، ونصب الرحلة لا يجد إلى قلبه
 مسلكاً، لا مشقة ولا وعناء، لا تعب ولا عناء، لا هموم ولا شقاء.
 يقال إن السفر سمّي سفرًا لأنه يُسفرُ عن أخلاق الرجال ويكشفها على
 حقيقتها. رأى عمر بن الخطاب رجلاً يُثني على آخر فقال له عمر: هل
 سافرت معه؟ قال: لا. فقال عمر: فما عرفته إذن.
 أخي المسافر إن اختيارك للصحبة الطيبة هو جزء لا يتجزأ من سفرك،
 وعنصرٌ لا غنى لك عنه في رحلتك وعليك قبل الشروع في ترتيب أمتعة
 السفر وحاجات الرحلة أن تشرع أولاً في البحث عن الرفيق الصالح والأخ
 الناصح، الذي إذا غفلت ذكرك، وإذا جهلت نبهك، وإذا أخطأت
 نصحك، وإذا أذنبت وعظك، إن عثرت أقال عثرتك، وإن أسأت ستر

إساءتك، وإن أحسنت أعانك على إحسانك، يؤثرك على نفسه، ويحبك من قلبه، ويصدقك في قوله ونصحه. وقد صدق أهل الأمثال في قولهم (الرفيق قبل الطريق) وقولهم (الرجل بلا إخوان كاليمين بلا شمال).

واعلم أخي المسافر أن المرء كثير بإخوانه، وأن المسافر قويٌّ برفقائه، واعلم أن القرين يعرف بقرينه، وكما تكون يكون جليسك، وقديماً قالوا: قل لي من تجالس أقل لك من أنت، فاختر الجليس الصالح فإنك لن تجد منه إلا خيراً، ولن ترى معه إلا حسناً، وقد دعانا نبي الهدى ﷺ إلى مصاحبة الصالحين ونبذ الطالحين فاستمع إلى هذا الحديث الجميل منه ﷺ: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً منتنة». وقال ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل».

وقال الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن مُقتدي
وصاحب أولي التقوى تنل من تقاهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي
﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ ﴿٢٧﴾ يَتَوَلَّيْنِ
لَيْتَنِي لَوْ أَنِّي أَخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ
الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾

[الفرقان: ٢٧-٢٩]

قال الحكماء: الصاحب رقة في قميص الرجل فلينظر الرجل بما يرفع

قميصه.

وما صاحب الإنسان إلا كرقعة على ثوبه فليتخذ ما يشاكلة

ومن صاحب العاقل ربح وفاز ومن صاحب الجاهل خسر وندم .

ولا تصحب أبا الجهل وإياك وإياه

فكم من جاهلٍ أردى حليماً حين يلقاه

يُقاسُ المرءُ بالمرءِ إذا ما هو ماشاه

وللقلب على القلب دليلٌ حين يلقاه

إن المسافر المؤمن العاقل يختار لنفسه الرفيق الصالح صاحب الدين؛
فإن تارك الدين عدوٌ لنفسه فكيف يُرجى منه مودةٌ لغيره .

واحذر معاشرة الدنيا فإنها تُعدي كما يُعدي الصحيح الأجرُب

يلقاك يحلف إنه بك واثقٌ وإذا توارى عنك فهو العقرُب

قال بعض الحكماء: اصطف من الإخوان صاحبَ الدين والحسب،

والرأي والأدب، فإنه ردةٌ لك عند حاجتك، وعند نائبتك، وأنسٌ عند

وحشتك، وزينٌ عند عافيتك .

أخلاءُ الرخاءِ همُ كثيرٌ ولكن في البلاءِ همُ قليلُ

فلا يغررك خلةٌ من توأخي فما لك عند نائبةٍ خليلُ

وكلّ أخ يقول أنا وفيّ ولكن ليس يفعل ما يقولُ

سوى خلٍّ له حسبٌ ودينٌ فذاك لما يقول هو الفعولُ

فصحبة التقى ومرافقته هي الفوز العظيم ﴿ الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ

[الزخرف: ٦٧]

عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿١٧﴾

أخي المسافر:

احذر مودةً ماذي مزج المرارة بالحلاوة

يحصي الذنوب عليك أيام الصداقة للعداوة

قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: لا تؤاخ الفاجر فإنه يُزَيِّن لك فعله، ويحب لو أنك مثله، ويزين لك أسوأ خصاله، ومدخله عليك ومخرجه من عندك شينٌ وعار.

يقول المأمون: الإخوان ثلاث طبقات:

طبقة كالغذاء لا يُستغنى عنه.

وطبقة كالدواء لا يُحتاج إليه إلاً أحياناً.

وطبقة كالداء لا يُحتاج إليه أبداً.

يقول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: لولا أن أجاهد في سبيل الله أو أضع جبهتي في التراب لله أو أجالس قوماً يلتقطون طيب القول كما يلتقط طيب التمر لأحببت أن أكون لحقت بالله.

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضرّ نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدّعتك شئت شمل نفسه ليجمعك

وما أروع ما قال البارودي واصفاً بعض الأصدقاء والرفقاء:

ليس الصديقُ الذي تعلقو مناسِبُهُ بل الصديقُ الذي تزكو شمائلُهُ

إن رابك الدهرُ لم تفشل عزائمهُ أو نابك الهمُّ لم تفتُر وسائلُهُ

يرعاك في حالتِي بُعدٍ ومقربةٍ ولا تُعبُك من خيرٍ فواضلُهُ

لا كالذي يدعي ودّاً وباطنه بجمر أحقادهِ تغلي مراجلُهُ

يذمّ فعل أخيه مظهرأ أسفاً ليوهم الناس أن الحزن شاملُهُ

وذاك منه عداؤٌ في مجاملةٍ فاحذره واعلم بأن الله خاذلُهُ

رزقنا الله وإياكم الصحبة الطيبة، والرفقة الصالحة، الذين نحبههم ويحبوننا في الله تعالى لنكون وإياهم ممن يظلمهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

رحلة!...

يقول أحمد أمين - رحمه الله - واصفاً إحدى رحلاته، وقد كانت هذه الرحلة إلى طور سيناء:

- إلى أين - يا قائد الرحلات - رحلتك هذا العيد؟

- إلى الطور.

- فليكن.

«وشددنا رحالنا» ولكن هذا تعبير لا يعجبني، فقد كان تعبيراً صحيحاً أيام الجمال والرحال، أما الآن فلم نركب جمالاً ولم نشد رحالاً، وإنما أعددتنا السيارات واختبرنا الآلات، وزودناها بما يكفي من ماء وبنزين. فلنعبّر عن ذلك كله تعبيراً واقعياً لا تقليدياً. وسرنا على بركة الله نضرب في الصحراء، ونقطع عشر ساعات ما كانت تقطعه الإبل في عشرة أيام، ولكن ما أعجب العرب! كانوا يركبون الإبل فبلغوا الغاية في التعبير عنها، وعرفوا أجزاءها، وسَمُّوا أعضائها، ووصفوا كل شيء فيها، وأنشؤوا حولها أدباً استوفوا فيه كل معنى رائع وقول جميل، حتى لم يتركوا لمن بعدهم فيها قولاً لقائل، وأتينا بعدهم لم نستطع - مع حضارتنا وتقدمنا وزعمنا إرث العرب - أن نضع أسماء عربية لأجزاء السيارة، ولا أن ننشئ حولها أدباً، لا رائعاً ولا غير رائع، واكتفى خيراؤنا أن ينقلوا أسماءها الإفرنجية، كما نقلوا مسماتها الإفرنجية، وأخذنا نصوغ عبارات الإبل للدلالة على سير السيارات. وهكذا نحن عالة على الأوربيين في المسمى وعالة على قدامى العرب في التعبير عنها؛ فمتى نشعر بالاستقلال؟

ما لنا ولهذا؟ فقد قطعنا الطريق البديع الذي يجمع بين السهول الفسيحة، والوديان التي تكتنفها الجبال الجليلة ذات الألوان البديعة، نقرب من البحر فنؤخذ بزرقته وتموجه وحركته، ونبعد عنه فنؤخذ بألوان الأرض المختلفة وجمال وشيها وسكونها وينظر جميعنا إلى ذلك كله نظرات متفاوتة حسب تفاوتنا في ثقافتنا؛ هذا عالم جيولوجي يقرأ في كل لون دلالة على نوع من المعدن، وفي كل طبقة دلالة على الأعمار، وهذا أديب لا يعنيه من كل ذلك إلا جمال المنظر وجلاله، وروعته وبهاؤه، وموسيقاه ونغماته، وهذا اقتصادي يقرأ في كل صفحة تطالعه متجهما مجهولاً وثروة ضائعة، يعلم ويندم، ويدرك ويتحسر، وكلنا يلقي خطرات من فيض علمه أو فيض أدبه، وكله يأنس بالطبيعة، ويستوحىها ويستوعبها، ومن حين إلى حين ندع الطبيعة وحقائقها وجمالها، ونستمع إلى حديث يسرنا بأفانيه، ويؤلمنا بإعادتنا إلى ما هربنا منه.

وكان جميلاً منظر الغروب في الصحراء والماء، وحتت علينا الشمس فأخذت تلعب أمامنا ألعاباً مدهشة! وآخر ما فعلت أن رسمت لنا في السماء لوحةً عجيبة في ألوانها ورسومها وتخطيطها، فلم تدع لوناً إلا عرضته في دقة وإحكام، وجمال وانسجام، ورسمت لنا أشكالاً فوق الهندسية، تسحر النفس، وتأخذ باللب، ثم أشفقت علينا أن نُجَنَّ بإبداعها فأسرعت في الاحتجاب، وأرسلت إلينا ابنها البار القمر، فلم يلعب بالألوان لعبها، ولم يتفنن في الأشكال أفانينها، ولكن لونه الفضّي الواحد جميل في الماء، جميل في الصحراء، وادع في غير عنف، هادئ هدوء الليل، ملهم إلهام الحب.

هذه هي «الطور» أرخى عليها الليل سدوله؛ وكساها من غموضه فلا ترى إلا أشباحاً: شبح أحجار، وشبح أبنية، وشبح شجر، فلندعها في غموضها وسدولها حتى تأتي إلينا الشمس القوية ثانية فتمزق حجبها، وتكشف أستارها، ولننم الآن نحلم بجمال ما رأينا. وأصبحنا فارتدنا البلد، أبنية حديثة جميلة نظيفة متفرقة.

ومشينا، ووصلنا إلى عين ماء بني عليها حوض يخرج الماء من جانب عذباً دافئاً، ويخرج من جانب آخر فيسيل في الوادي، فتنبت منه الأعشاب والأشجار والنخيل. وتزين الصحراء بجمال الخضرة.

وتسلك الجبال فنحس بما خلفته الحضارة في نفوسنا من أبقال وأوبئة، حتى نعي من السير اليسير وتنقطع أنفاسنا من الصعود القليل، ونفقد مزايا العيشة البسيطة الطبيعية الملائمة للصحة، ولكننا نكد ونجد حتى نبلغ القمة، وقد بلغ منا الإعياء مبلغه، وإذا بمنظر رائع تنسينا لذته ما نالنا من الضنى؛ ننظر يمناً فهذا واد فسيح، وصحراء جرداء نثرت فيها أشجار تكافح، وننظر يسرة فهذا بحر يعج بالموج وبالحياة، وأمامك جبال متسلسلة تبعث فيك الروعة والجلال، وتتناغم كل هذه المناظر فتؤلف موسيقا يعجز عن وصفها البيان.

ونعود إلى مأوانا فنسمر سمرأً لذيذاً فيه الفكاهة الحلوة، والقصص الممتع، والحديث يجري عذباً في غير كلفة، ولا تصنع ولا منطق، ويملاً وقتنا شاعر يطربنا من إنشائه ومن إنشاده، وتضيق بنا الحجرة فنخرج إلى الجو الطلق والسماء الصافية، والبحر يلاعب القمر.

وقضينا في الطور ثلاثة أيام، ننعم فيها بالعيشة البسيطة، ونهرب من

تكاليف الحياة، ونمعن مرة في الصحراء، ونمشي مرة على هامش البحر، ونزقني جبلاً، ونهبط وادياً، حتى مرت كأنها حلم لذيذ.

واعتزمنا العودة فأخذنا على أنفسنا أن ننعم بمنظر لم نره في المجيء.

قمنا قبل الفجر والطبيعة كلها نائمة والقمر قد أضناه السير فعلا وجهه الشحوب، وأدّى رسالته فاعتزم الراحة، وعلم بقدم أمه الشمس، فأخلى لها الطريق، وسارت سيارتنا تقلق السكون بأزيزها، وبدت تبشير الصباح، ومحت آية النهار آية الليل، وطلعت الشمس فأضفت على الكون من شعاعها الذهبي الجميل؛ وعادت مناظر الصحراء والماء تعرض علينا من جديد من غير أن تفقد شيئاً من روعتها الأولى وجمالها؛ وكانت فصول الرواية طويلة غير مملولة، وصحبنا الشمس في كل حالاتها، واستقبلنا القمر في طلعه كما ودعناه في غيبته.

وتزودنا من محاسن الطبيعة ما تزودنا، وقربنا من خالقها ما استطعنا.

ثم هاهي أضواء القاهرة وضوضاؤها تردنا إلى حياتها المعقدة، وتكاليفها الشاقة، وهاهم باعة الجرائد يتصايحون يذكروننا بما نسينا من شؤون الحرب وويلاتها، وهاهي أماكننا المحدودة وأبنيتنا المتلاصقة تحجبنا عن الطبيعة وجمالها، وهاهي حياتنا الأولى تعود سيرتها وتكرر نغمتها حتى تسنح لنا الفرصة فنفر منها في رحلة أخرى إن شاء الله.

المسافر والجبال

أيا جَبَلِيَّ نَعْمَانُ بِاللَّهِ خَلِيَا نَسِيمُ الصَّبَا يَخْلُصُ إِلَيَّ نَسِيمُهَا
أَجْدُ رَوْحَهَا أَوْ تُشْفِئُ مِنِّي حَرَارَةً عَلَى كَبِدٍ لَمْ يَبْقَ إِلَّا صَمِيمُهَا
لَأَنَّ الصَّبَا رِيحٌ إِذَا مَا تَنَسَّمْتُ عَلَى نَفْسٍ مَكْرُوبٍ تَجَلَّتْ هَمُومُهَا
المسلم يشعر بالألفة والموَدَّة مع كل ما حوله من الطبيعة
والمخلوقات، ومن ذلك الجبال، يقول ﷺ: «أحد جبل يحبنا ونحبه» .
ووقف ﷺ في يوم من الأيام على جبل أحد هو وأبوبكر وعمر وعثمان
فارتج الجبل فقال ﷺ: «اثبت أحد فإنما عليك نبيٌّ وصديقٌ وشهيدان» .

الجبل رمز الشموخ، ومثال الرسوخ، وعنوان الثبات، وقرين الأنفة،
وعلم الهداية، الجبل عندنا في الإسلام يعني أشياء كثيرة، الجبل مخلوق
من مخلوقات الله تعالى، يسبح بحمد ربه، ويمثل أمر خالقه، وقد دعانا
الله تعالى إلى تأملها والنظر إليها ﴿الْقُرْآنُ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ
ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ
سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧]

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ
كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾ [الغاشية: ١٧-١٩]

إن إشراقه النور، وإطلاقة الوحي، بدأت من قمة الجبل، وأول من
استقبلها الجبل، فلقد هبطت ﴿أَقْرَأُ﴾ على الرسول ﷺ وهو في قمة ذلك
الجبل الشامخ جبل حراء، ولذلك سمَّاه الناس فيما بعد «جبل النور» وهو
حقاً جبل النور، وأول من استقبل النور، وإن الجبل هو الذي احتضن

الرسول ﷺ وأبو بكر حينما أرادا الهجرة إلى المدينة فاخْتَبَأَ فِي الْغَارِ الَّذِي فِي جَبَلِ ثَوْرٍ ﴿ثَانِيكَ أَتَيْنِ إِذْهُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾

[التوبة: ٤٠]

ولو أن ما أنزل علينا من الهدى والقرآن أنزل على الجبل لكان أكثر منّا خشوعاً وأعظم منّا تصدعاً وإجلالاً لهذا الوحي ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

[الحشر: ٢١]

والجبل يكاد ينهدُّ إجلالاً لله وغضباً له وخوفاً من شؤم الكلمة التي قالها أعداء الله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ ﴿٩١﴾ ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿لَقَدْ أَخَصَنَّمْ وَعَدَّاهُمْ عِدًّا﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْفَيْصِمَةِ فَرْدًا﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِصُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ ﴿٩٨﴾

[مريم: ٩٨-٨٨]

الجبال تساهم في حفظ توازن الأرض التي نعيش عليها فهي تُقدم لنا خدمة جليلة ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَضَهَا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

[النحل: ١٥]

﴿وَالْجِبَالُ أَوْتَادًا﴾

[النبا: ٧]

الجبال سخرها الله تسبح مع داود عليه السلام ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾

[الأنبياء: ٧٩]

﴿ وَقَدَّأَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَنْجِبَالُ أَوْبَى مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ ﴾ ﴿١٦﴾

[سبأ: ١٠]

الجبال تسجد لله تعالى مع غيرها من مخلوقاته ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ ﴿١٦﴾
مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالذَّوَابُّ
وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ
يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ ﴿١٨﴾ [الحج: ١٨]

الأمانة التي حملها الإنسان خافت منها الجبال وأبت أن تحملها ﴿ إِنَّا
عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا
الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ﴿٧٧﴾ [الأحزاب: ٧٢]

والجبل لم يستطع أن يتحمل الموقف الرهيب المهيب، وهو تجلي الله
تعالى له حينما طلب موسى من الله تعالى أن يراه ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا
وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ
اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا بَجَلْنَا رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى
صَوِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٤٣﴾

[الأعراف: ١٤٣]

وأخيراً فإن هذه الجبال الشامخة العظيمة إذا قامت القيامة وجاءت
الصاخة ينسفها ربي نسفاً ﴿ وَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٧﴾ فَيَذَرُهَا
قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٨﴾ لَا تَبْقَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٩﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]

﴿ وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿١٧﴾ [الكهف]

الجبل

يقول أحد الشعراء واصفاً جبلاً من الجبال وما أحسن ما قال :

حتى رمت جبل الفتحين من جبل
من شامخ الأنف في سحنائه طلس
تمسي النجوم على تكليل مفرقه
فربما مسحته من ذوائبها
وأرد من ثنياه بما أخذت
مقيد الخطو جوال الخواطر في
قدواصل الصمت والإطراق مفكراً
كأنه مكمد مما تعبده
أخلق به وجبال الأرض راجفة
وما أجمل اللفتة التي أشار إليها الشاعر بقوله :

كأنه مكمد مما تعبده
خوف الوعيدين من دك وتسيير
ويقصد بذلك أن هذا الجبل كأنه مكلوم محزون لهول ما يستقبله من
أمر الله تعالى إذا قامت القيامة فهو يشير بقوله ذلك إلى قوله تعالى :
﴿ وَيَوْمَ نُسِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف]
وقوله : ﴿ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّنَا ذَكَّةً وَوَحْدَةً ﴾ [الحاقة : ١٤]

ويقول الدكتور صابر عبدالدائم في مقطع من قصيدة الجبل وهي من وحي أم القرى «مكة المكرمة»:

فكأنني في الصخر أرتحلُ	أنى أسير يَضُمُّني الجبلُ
تبدو وفي الأجواء تنتقلُ	من كل زاوية مَلامِحُه
قلب الخفايا لمُحها يصلُ	فكانه عينُ الوجود إلي
وهو الفتى وليس يكتهلُ	حملَ العُصُورَ الشَّمَّ كاهله
لكنه بالخير يشتعلُ	متجَهِّمٌ جَزْداءُ قِمَّتُه
فإذا بجرح الكون يندملُ	مدَّتْ إلى الغيمات راحته
يُسْقَوْنَ فيض العزِّ إذ نهلوا	وإذا العوالم من بحيرته
فإذا به للطفل يمثُلُ	قدَمُ الرِّضِيعِ تهزُّ جبهته
والأمُّ يَهْجُرُ قلبها الوجُلُ	وإذا بعين الحبِّ مشرقةٌ
تضوي الأغاني وهي ترتجلُ	وإذا الطيور على مباسمها
أم القرى ويكبُرُ الجَبَلُ	وإذا الوجود الطفل تحضنُه
الأرض بالعلياء تتصلُ	وحراء نبعٌ في تماوُجه
ولها بكل منارة شعلُ	صخر ومنه تفجَّرتْ شهبٌ
فإذا الجبال الصمُّ تبهلُ	اقرأ تعالى الله قائلها

أعجب سفر في تاريخ البشر المعراج

إنه سفر محمد بن عبدالله ﷺ إلى الملائ الأعلى، فهو رحلة المخلوق إلى الخالق، والضعيف إلى القوي، والفقير إلى الغني. سفر اتصلت فيه الأرض بالسماء، والعقل بالنقل، والفناء بالبقاء. سفر وصل فيه الخيال بالحقيقة، والظن باليقين، والشك بالإدراك. سفر وصل الخليقة بالحضرة القدسية، والأنام بالملائ الأعلى، والبسيطة بسدره المنتهى.

هذا السفر لمحت فيه العيون ضوء الحرف في اللوح المحفوظ، وجلال الخطاب في المقام الكريم، وقدسية الميثاق في المنزل العالي.

هذا السفر رفر بالنفس البشرية على بساط الكرم الرباني، وهتف بوجودان الإنسان لبدء الميلاد الثاني، ونفض غبار الجهل، ودخان التبعية، وأوضار التقليد عن العبد ليتبع الرسول العدناني، ومع ذلك فقد كان هذا السفر أسرع من الضوء، وأسعد من البشري، وأكبر من التاريخ.

﴿ سُبْحٰنَ الَّذِيٓ اَسْرٰى بِعَبْدِهٖ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ اِلَى الْمَسْجِدِ الْاَقْصَا الَّذِي بَنٰرْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُنَّ مِّنْ اٰيٰتِنَا اِنَّهٗ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيْرُ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء: ١]

﴿ وَالنَّجْمِ اِذَا هَوٰى ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صٰحِبُكُمْ وَمَا غَوٰى ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوٰى ﴿٣﴾ اِنْ هُوَ اِلَّا وَحْيٌ يُوحٰى ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيْدُ الْقُوٰى ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوٰى ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْاُفُقِ الْاَعْلٰى ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلٰى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ اَوْ اَدْنٰى ﴿٩﴾ فَاَوْحٰى اِلٰى عَبْدِهٖ مَا اَوْحٰى ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَاىٰ ﴿١١﴾ اَتْمَدْرُوْنَهٗ عَلٰى مَا يَرٰى ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَاَهُ نَزْلَةً اٰخْرٰى ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهٰى ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوٰى ﴿١٥﴾ اِذْ يَغْشٰى السِّدْرَةَ مَا يَغْشٰى ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغٰى ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَاىٰ مِنْ اٰيٰتِ

رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿١٨﴾

[النجم: ١٨١]

تعبیه: المقصود بقوله تعالى: ﴿ أَفَتَمُرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴿ جبريل عليه السلام فإن النبي ﷺ رآه على صورته الحقيقية مرتين، وليس المقصود أنه رأى الله تعالى. ففي صحيح مسلم أن أبا ذر - رضي الله عنه - سأل النبي ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «نورٌ أتى أراه». عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتيتُ بالبراق، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء، قال: ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل عليه السلام: اخترت الفطرة، ثم عُرجَ بنا إلى السماء فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: وقد بعث إليه، ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب بي ودعالي بخير.

ثم عُرجَ بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل: مَنْ أنت؟ قال جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففُتِحَ لنا فإذا أنا بابنِ الخالة: عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا، صلوات الله عليهما فرحبا بي ودعوالي بخير.

ثم عُرجَ بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففُتِحَ لنا فإذا أنا بيوسف ﷺ، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن

فرحَّب بي ودعا لي بخير .

ثم عُرِّجَ بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك؟ قال : محمد ﷺ ، قيل : وقد بعث إليه . قال : قد بعث إليه ، فَفُتِحَ لنا ، فإذا أنا بإدريس ، فرحب بي ودعا لي بخير . قال الله عز وجل : ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ .

ثم عُرِّجَ بنا إلى السماء الخامسة ، فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك؟ قال : محمد ﷺ ، قيل : وقد بعث إليه؟ قال : قد بعث إليه ، فَفُتِحَ لنا ، فإذا أنا بهارون ﷺ فرحب بي ودعا لي بخير . ثم عُرِّجَ بنا إلى السماء السادسة ، فاستفتح جبريل قيل : من هذا؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك؟ قال : محمد ﷺ ، قال : وقد بعث إليه؟ قال : قد بُعِثَ إليه ، فَفُتِحَ لنا ، فإذا أنا بموسى ﷺ ، فرحب بي ودعا لي بخير .

ثم عُرِّجَ بنا إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل قيل : من هذا؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك؟ قال : محمد ﷺ ، قيل : وقد بُعِثَ إليه ، قال : قد بُعِثَ إليه ، فَفُتِحَ لنا فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه .

ثم ذهب بي إلى سِدْرَةِ المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيل ، وإذا ثمرها كالقلال ، قال : فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها ، فأوحى الله إليَّ ما أوحى ففرض عليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة ، فنزلت إلى موسى ﷺ ، فقال : ما فرض ربك على أمتك؟ قلت : خمسين صلاة ، قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإنَّ أمتك لا يطيقون ذلك ، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم ،

قال: فرجعت إلى ربي فقلت: ياربِّ خفِّفْ على أمتي، فحط عني خمساً، فرجعت إلى موسى عليه السلام، فقلت: حطَّ عني خمساً، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فسله التخفيف، قال: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمدُ إنهنَّ خمسُ صلوات لكل يوم وليلة، لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا، ومن هم بسية فلم يعملها لم تكتب له شيئاً، فإن عملها كتبت له سيئةً واحدة، قال: فنزلتُ حتى انتهيت إلى موسى عليه السلام فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقلت: رجعت إلى ربي حتى استحييت منه» .

[رواه مسلم]